فلسطين وأهلها

رمضان الفلسطينيين ..

ميقـــات المواجهة المقدسة

رمضان الفلسطينيين .. ميقاتُ المواجهـــــة المقدســـــة

رضوان قطناني

لتسمية رمضان بـــاسمه هذا حكايات مختلفةٌ ، أشهرها أنّ العرب لمّا أرادت تسمية شهورها وافق ذلك أن رمضان أتى في شدة الحر التي هي الرمضاءُ، فجعلوه "رمضان" اشتقاقاً من الكلمـة. غير أن حكاياتٍ أخرى قيلت في التسمية، كقولهم إن فرض الصيام في رمضان وافق شدة حـــرّ فيه، وقولهم إن العرب كانوا يرمضون أسلحتهم فيه (أي يدقونها ويشحذونها بين الحـجارة)ً استعداداً لجولة قتالٍ تاليةٍ ستنشب في شوّال قبل الأشهر الحرم [1].

ومهما يكن من أمر أصل تسمية الشهر، فإن للذي يرى أن الأسماء مقاديرُ لا مصادفاتٌ، أن يلمحَ معنى ما وراءَ هذه المفردة التي تسمت بها هذه الأيام الثلاثـــــون ما بين الهلالين. وحاصل الأقوال أنّ ضرباً من ضروب المشقة هو من منح الشهر اسمه، وليس أي مشقة، بل مشقـــة متعلقة بالرمضِ ، رمض الجو، أو رمض الحرب والقتال.

الصوم: قتالٌ في الطريق إلى القتال

جاء الصوم رمضانياً بعد، والصوم من عبادات المشقة والمجاهـــــدة، فهو تركٌ – وإن كان مؤقتاً- لما تقوم به الحياة وما تشبعت به النفس واعتادت عليه، وهو فعـــــل يورث الجوع والعطش، والعطش شيءٌ يشبه النار في الجوف، فلنا أن نقول إنه من تجليّات معنى الرمض في جوف الصائم. وبهذا تلمحُ مناسبة الاسم لواقع الحال الذي يقيم عليه المسلـــــم شهره في مكابدةٍ ومشاقةٍ ومجاهدة، لا ينفي طبيعتها أجرها المترتب عليها بل يؤكـــده، ولا ينفيها كذلك أيادي العون الربانية للمؤمن من تصفيدٍ للشياطين وهمةٍ تقذف في القلب بل تؤكـــده كذلك، فهي لمّا كانت مشقةً تطلّبت العون الجليل والأجر العظيم.

حينما شحذ المسلمون سيوفهم أوّل مرةٍ لقتال أعدائهم في بدر كان ذلك في رمضان، ولمـــا شحذوا سيوفهم لإنهاء سلسلة القتال مع أعدائهم الأوائل في قريش كان ذلك فـــي رمضان كذلك. إذن، كانَ شهرُ الرّمضِ والصيام شهرَ قتال المسلمين، وفاتحةَ حربهـــــم الأولى وخاتمتها. وفي القرآن استخدمَ اللفظ نفسه للإشارة إلى فرض الأمرين اللذين طبعا رمضـــان، الصيام والقتال .. "كـُتب عليكم الصيام" و "كـُتب عليكم القتال".

يبيّـن هذا اشتراكاً يبدو عميقاً بين معنيي الصيام والقتال، حتى يـُكتبا على المسلمين بالصيغـة نفسها، ويتزامنا في أهمّ مواقيت حربهم الأولى. فالصيام هو قتـــالُ الإنسان في الميدان

[1] http://bit.ly/3z6ExMR

الأول، ميدان نفسه حيث يغالب هواه ورغائبه، وركونه إلى السبب الدنيوي في استمرار حياتـــه، فيخلص بذلك إذا استقام له صيامه إلى معنى التقوى "لعلكم تتقون". والقتال هو قتال المسلم الذي تحقق بمعاني التقوى في ميدان الواقع، ثم هو مبشرٌ بأن هذا الذي يبدو له كرها لعلّـــه يكون خيره وهو لا يعلم. فكان رمضان إذن جماع الأمرين، وميقاتهما المشترك الذي يحضـــران فيه متمازجين لا مفترقين، فتكثّفت فيه معاني القتال على مستوياتها المختلفة، فصار هـــو هو شهر الصوم وشهر القتال، النقطة التي يشتبك فيها المعنيان، فيمـــــــدان بعضهما من بعضهما.

ثمّ على طول التاريخ التالي للمسلمين، كان رمضان ميقاتاً هاماً لمعارك فاصلةٍ في تاريخهـــم، فبعد بدر وفتح مكة، كانت القادسية، وفتح عمورية، وفتح الأندلس، وعين جالوت، ثم كانـــت في عصرنا حرب رمضان (حرب أكتوبر 1973)، وحربا العصف المأكول (2014) وسيـــــف القدس (2021)، اللتين ابتدأتهما المقاومة في رمضاني العامين.

رمضان .. ميقات حرب الضرورة والنقاء

بالرجوع إلى كون رمضان ميقاتاً افتتح مسيرة قتال المسلمين الأولى ضد قريش واختتمها، يضيءُ هنا ملمحان، أولهما: الأهمية القصوى، فبدر كانت الحرب التي إن هلكت عصابتها لن يعبـــد الله في الأرض وفق تعبير النبي "صلى الله عليه وسلم"، فهي إذن حرب البقاء وفتح البـــــاب الأول لإمكانية استكمال المسيرة؛ وفتح مكة جمع إلى كونه النصر الذي اختتم هذه الحرب، كونـــه الحدث الذي فتح باب العالم أمام الدين الجديد. أما الملمح الثاني فهو النقاء، فقد كانت هـــذه الحرب حرباً نقيةً تتمايز فيها الصفوف، ولا يلتبسُ فيها العدو، ولا تغالب غاياتِها العليا مطالبُ الدنيا وتهويمات السياسة، ويجمعُ عليها أهلها، فينطلقون نحوها بصفٍّ موحد.

يمكن لنا الزعم أن فلسطين في عصرنا هي أقرب الميادين إلى تلك الحالة الإسلامية الأولى، لقتـال المسلمين الأوائل، فهي أهمّ حروب المسلمين ومعاركهم، فـ "إسرائيل" القائمة على أرضهـا هي مشروعُ تخلف المسلمين، وشرط موضوعيٌّ لضعفهم، وهزيمتها شرط موضوعي لإمكانِ قيام نهضتهم وبناء مشاريعهم المستقلة، فالحاصل إذن أنّـه لا إمكان لانتصـــــار العرب والمسلمين، أو قيام مشروع حضاريّ مستقلّ لهم دون أن يخوضوا هذه الحرب، حرب الضـرورة القصوى والأهمية البالغة؛ ثمّ هي أنقى حروبَ العرب والمسلمين، العدوّ فيها عدوٌّ خارجـــيٌّ لا بينيٌّ، عداوته بالغة الوضوح، والحقّ فيها شديد الظهور، وحظـــــوظ النفوس والتباسات السياسة تنخفض فيها إلى الحدّ الأدنى، لا ينفي ذلك عنها محاولاتُ نظم التطبيع المعاصـــرة سلبها ميزاتها، بل يؤكّـده ما تلمحه من التفاف شعبيٍّ كبيرٍ حول فلسطين رغم ردة هـــذه الأنظمة عنها.

كان رمضانُ إذن ميقاتاً هاماً لحروب فلسطين، أو حروب نشبت على إثر قضيتها كحرب أكتـــوبر 1973، لتشترك في مواقيتها مع مواقيت حروب المسلمين الأولى، بل وتشتـــــرك كذلك في

تسمياتها، فالخطّة التي نفّذها الجيش المصري في حرب أكتوبر مثلاً ، سُميت بخطة "بدر" تيمّناً بمعركة المسلمين الأولى.

ورمضان، الذي هو موعد ركن الصيام الإسلامي، هو موعد تتكثّف فيها معاني القتال على الطريقة الإسلامية، أو القتال الذي تحضر فيه روح الإسلام، فالمعارك الآنفة الذكر التي جرت في رمضان، تجلّت فيها هذه المعاني بأشكال متعددة، ففي أكتوبر، ومع كون النظام المصري غير مصطبغ بالصبغة الإسلامية، إلا أن حضوراً لافتاً للمعاني الإسلامية عمّ الحالة القتالية للجيش المصري. يروي طرفاً من ذلك رئيس أركان الجيش المصري حينها سعد الدين الشاذلي في مذكراته وشهادته، إذ كان هتاف "الله أكبر" هتاف الجيش وشعاره وصيحة حربه[2]،كما وزع على الجنود كتيبٌ بعنوان "عقيدتنا الدينية طريقنا إلى النصر"[3]، جاء فيه: "إنّ عقيدتنا الدينية هي إحدى العوامل الرئيسية لتحقيق النصر، فهي التي تضيء لنا الطريق، وهي التي تبعث الصلابة في أنفسنا .. وهي التي تثبت أقدامنا، وهي التي تبشرنا بالنصر، وهي التي تعد من يستشهد منا بجنات عرضها السماوات والأرض"[4].. "إن القيم الروحية والمثل العليا النابعة من عقيدتنا الدينية تعتبر الأساس المتين للحصول على النصر في المعركة، ومن هذه العقيدة يمكن أن نستخلص خير المناهج لإعداد المقاتل الكفء الذي لا يقهر، ويكفي على سبيل المثال أن نقارن حال العرب قبل الإسلام بحالهم بعد الإسلام، ثمّ نبحث عن سر ذلك التحول العظيم الذي حدث للعرب بعد الإسلام"[5].

رمضان .. الطلقة ودفقة الدم

يبيّن هذا الاستدعاء العميق والمكثّف للمعاني الإسلامية في أكتوبر عمق حضورها الأصليّ في شخصية المسلم والعربي، ثمّ عمق فاعليتها في شخصيته وفي فعله، فهي تحضر تلقائياً في وجدانه في لحظة الاحتدام، ثمّ يكون لهذا الحضور بالغ الأثر في الفعل الواقعي، بما يشير إلى أنّ الاستغناء عنها–لو حدث- إنما هو استغناء عن جزء أساسي من شخصيتنا، ومحركٍ أساسيّ من محركاتنا، ثمّ يحضرُ رمضانُ هنا بما يحمله من مضامينَ إسلاميةٍ ليكون ميقات هذا الحضور، فيصبغ زمن المقاتل وروحه.

لا يَخفى بعد ذلك الحضور الديني المكثّف لمعاني رمضان الإسلامية في جولات غزة مع الاحتلال، من جهة أنّ قادة الحرب أصلاً هي حركاتٌ ناهضةٌ على منح القتال الفلسطيني بعده الإسلاميّ، بما يعنيه ذلك من تكوين الشخصية المقاتلة على هيئة المقصد الإسلامي والصورة الإسلامية، وحضور الخطاب الإسلاميّ في مسيرة القتال الممتدة إعداداً وقتالاً ، وإعادة واحدٍ من أهمّ عوامل القوة والنصر إلى ساحة المواجهة.

في العصف المأكول، التسمية المأخوذة من القرآن الكريم، وفي أحد خطابات الرجل الذي سيسمّى بعدُ قائد أركان المقاومة محمد الضيف، وسيصير الهتاف له ثيمةً فلسطينية معبرةً

2 https://bit.ly/3K7yTAt
3 مذكرات الفريق سعد الشاذلي عن حرب أكتوبر، دار رؤية.
4 عقيدتنا الدينية طريقنا إلى النصر، سعد الدين الشاذلي.
5 المصدر السابق.

عن الالتفاف حول نهجه، يقول الضّيف: "الحـــمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على قائد المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يـــوم الدين .. "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم يشف صدور قوم مؤمنين" .. اللهـــم بك نصول وبك نجول وبك نقاتل ولا حول ولا قوة إلا بك .. إن موازين المعركة باتت مختلفة، فأنتم تقاتلون اليوم جنوداً ربانيين يعشقون الموت في سبيل الله كما تعشقون الحياة".

رمضان والأقصى .. حرب على الزمان والمكان المقدسين

أما سيف القدس، فقد كانت المعادلة التي اجتمعـــت فيها المؤثرات الإسلامية على مستويات الزمان والمكان والخطاب والفعل، فهي بالإضافة إلى اتصافها بما تتصف به العصف المأكـــول، اكتسبت زخماً إضافياً يوم كانت الحرب التي اندلعت في مواجهة محاولات الاحتلال كســـر الحضور والاعتكاف الإسلامي الرمضاني في المسجد الأقصى، بما يعني تسييد الزمـــان والمكان الإسرائيليين على الزمان والمكان الإسلاميين المقدسين، فجاءَت الحربُ لتستنقذ المقـــدس الإسلامي، وتفرض الصبغة الإسلامية على الزمان والمكان، كما هما في أصلهما.

لم تكن الحربُ إلا استمراراً لإرادة وفعلٍ ممتدين، يتكثّفان في رمضـــان، يقودهما الشباب الفلسطيني للحفاظ على المسجد الأقصى، الزمان والمكان، فيسيل الشّبان الملاحقون بالتقييـد والقمع، والمحاصرون بالسطوة والمنع، إلى مسجدهم ليرابطوا فيه، ثمّ يصلون إليه بأيديهم وملابسهم الممزقة، وأحياناً بعظامهم المكسّرة، من آثار تسلقهم جدران الاحتلال وأسلاكه الشائكة التي صُنعت لتحول بين الفلسطيني وامتداده وقتاله، وتحول بينه ومسجده الأقصـــى، عنوان قضيته، وبعدها الإسلامي الأظهر.

يحضر رمضانُ، موسمَ العبادة الإسلامي، وموسمَ القتال الإسلامي على مستويي النفس مـــن حيث هو، والأعداء من حيث سيرته التاريخية وفاعليته مع المسلمين، ليكون زمنـــاً متوقعاً للنهوض والقتال في فلسطين، لا سيّما مع هذا الارتباط العميق مع المسجد الأقصى، ليمتزجا معاً، الزمان المقدس - رمضان، والمكان المقدس – الأقصى، ويكثّفا قصّة الصراع مع الاحتـلال على الوجود في الزمان والمكان، وهو وجودٌ يسعى الاحتلال إلى نفيه.

يبدو رمضان الفلسطينيين، وقتاً مرشحاً لبث معانيه (معاني المجاهدة)، وإرثه (إرث القتال)، فـي نفوس أهل البلاد، وقتاً تخفتُ فيه مشاريعُ الردة عن فلسطين وتتأزم كأنّـها تشتـــرك في الأصفاد مع المردة، وتعلو مشاريع المواجهة وتكسبُ نفساً جديداً، وهي تتحصلُ همة الوقت وعونه في القلوب والسواعد.

وفي رمضاننا هذا، ينظر بترقب إلى ما يمكن أن تحمله أيامه من "احتمالاتٍ للتصعيد"، لا سيـــما وأنّ عيد الفصح اليهودي يتزامن مع الأسبوع الثالث من رمضان، حيث يعد المستوطنـــــــون لاقتحاماتٍ مكثّفةٍ للمسجد الأقصى خلاله، بينما يتهيأ الفلسطينيون للاعتكاف والرباط فـــي المسجد الأقصى لمنع الاحتلال من استباحته، ومنع فرض المزيد من الإجراءات التهويدية فيـــه، وفرض تقسيمه الزماني والمكاني.

قبل رمضان شهدت المنطقةُ حراكاً واسعاً لمنع التصعيد المرتقب، فكان مؤتمرا العقبة وشرم الشيخ، وما ينتظر أن يتلوهما من اجتماعات. ولنـــــا أن نقول إن المستهدف بالمنع هو الرفض الفلسطيني، أي أن المطلوب هو تمرير المخطط الإسرائيلي بأقل قدر من الرفض الفلسطيني،وهو ما يجعلهُ رمضانُ صعباً، مع تدفّقُ معانيه الإيمانية في النفوس، ومع شيوع حالة الربـــــاط والاعتكاف في المسجد الأقصى خلال أيامه.